

غزيراً، وهذا ظل أختي ماكثاً لا يريم، وهذه الظلال تذهب من حوله وتجيء، إن لي بهذه الظلال لعهداً، لقد رأيتهما ولقد سمعت عنها حديثاً، لقد حدثتني عنها أختي في تلك الليلة التي قضيناها مروعتين حين أقبل خالنا يدعونا إلى سفره الأثم.

نعم إن لي بهذه الظلال الحمراء ظلال مارتا وأميئة وملزمة تلك التي كانت تتراءى لنا فتملاً قلب أختي فرقاً وهلعاً وروعاً ... إن لي بهذه الظلال لعهداً، وإني لأعرفها، وإني لأفهم الآن إلحاحها بالزيارة على هذا الظل المقيم، لقد أقبلت تحييه وتواسيه وتبته ما وجدت من ألم وحزن، وتسمع منه ما وجد من شقاء وبؤس. إن نجوى الظلال لغريبة ... ليتني استطعت أن أفهمها، ليتني استطعت أن أستحيل ظللاً فأفهم حديث الظلال! ما بال أختي لا تتناجيني، أتراها لا تحس محضري، أم تراها لا تعرف كيف تتحدث إليّ أو تفهم عني؟ ألتغير لغة الناس إذا ماتوا؟! لقد حدثونا أن للموتى حديثاً يلقيه إلى الأحياء فيفهمه عنهم الأحياء ...

إني لأعرف هذه الظلال، لقد كنت في ضلال إذن حين كنت أزعم لأختي في بعض الطريق أن الأشباح بنات الليل، وأنها تكره ضوء النهار ولا تستطيع أن تظهر فيه؛ والظلال ملحة في المثل أمامي لا يصرفها عني مطلع النهار ولا يصرفها عني مقدم الليل، إن الظلال إذن لا تهاب نوراً ولا تألف ظلمة، ولعلها لا تعرف نوراً ولا ظلمة وإنما نحن يغشينا ضوء النهار فلا نرى الظلال التي تحيط بنا وتضطرب من حولنا وترى كل ما نأتي وتسمع كل ما نقول، ولعلها ترثي لنا، ولعلها تسخر منا، ولعلها لا تفهم عنا شيئاً كما أننا لا نفهم عنها شيئاً، يا للهول إن تدفق الينبوع ليشد، وإن الدم لينتشر من حوله انتشاراً، وإن الحمرة لتصبغ كل شيء من حولي، وإن هذه الظلال لتدنو مني كأنها قد عرفتنني وكأنها تريد أن تقبلني! يا للهول، إن الروح ليملاً قلبي، وإن الصياح ليتفجر من فمي فيملأ الجو من حولي كما ينفجر الدم من الينبوع فيصبغ الأرض بحمرته، وإن أهل الدار ليقبلون علي، منهم الجزع، ومنهم المطمئن، وهم يرفقون بي ويعطفون علي ...!

وهذه أُمي، يا للهول! ما أسمع هذا الوجه وما أقبح هذه الصورة وما أشد بغضي لهذا المحضر! إنها لتدنو مني وإن الدم ليجمد في عروقي لمقدمها، إنها لتضع على رأسي خرقة مبللة وإني لأجد لبرد الماء شيئاً من الراحة، ولكن لينصرف عني هذا الوجه فأني أكره أن أراه، لترد عني هذه المرأة فأني لأخشى أن تقتلني ... وكيف أخلص منها وكيف آمن محضرها إلا إذا أويت إلى الصمت ولجأت إلى الهدوء؟ إنه لعذاب أليم هذه الحياة